العربية والتركية

أصيبت الأمة بعد سقوط دولة بني العباس بجمود غريب في العلم والآراء لا مثيل له في أعاريك الحروب والقتل . ولما قامت الدولة العثمانية جمعت تحت لوائها الأقطار الجميلة الطرف من البلاد العربية من الوجهة السياسية ودانت بها ولا سيما من الوجهة [illegible] الأعجمية لسانها في عامة دواوينها وأقطارها ولم يشذ عن ذلك إلا مصر التي كانت شبه مملكة مستقلة حتى بعد استيلاء العثمانيين عليها . وبعد أن قامت الدولة تؤسس لها مدارس في العاصمة والولايات لنشر العلوم الحديثة واستبدل التركي [illegible] . أما محمد علي والي مصر فخرج القطر المصري من [illegible] في الظاهر ومن الدولة في الباطن وأنشأ فيه مدارس عربية وتوفر لذلك جماعة من مستشرقي الفرنسيين [illegible] في ترجمة الكتب العالية من اللغات الأوروبية فانتعشت اللغة العربية في مصر فقط ولذلك كان العرب فيها [illegible] ومواطن الطباعة والكتب والصحف وأدوارها يستفيدون وذلك لنشاطها العظيم وتاريخها المجيد القديم .

بقي الأمل في نهوض العربية محصوراً في مصر لأن الشام والعراق والجزيرة والمغرب واليمن ونجد وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش مست بها قيود . وقد أنشئت في تونس وسورية بعض المدارس والمطابع الدارسة بالعربية وطبع اللازم من الكتب العربية [illegible] حتى انحطت شعبتها بأسباب سورية من [illegible] الولاية وما أصاب تونس من الاحتلال الفرنسوي . والمراقبة والحلال الغريب ما [illegible] روح العلم ويجرح حياة النهضة القومية . وقد أوشكت مصر أن تطلب بضعف لغتها بالحكم الإنكليزي لولا أن قامت الأمة وطلبت جعل العربية لغة المدارس الابتدائية والثانوية فلم تر الحكومة بداً من إجابة طلبها .

أما هذه الأيام فكان أول ما انصرفت إليه الوجوه بعد إعادة القانون الأساسي العثماني مسألة التعليم فالتركية لسان الدولة الرسمي تريد أن تعلمه جميع العناصر العثمانية لتجمعهم في المستقبل مزيج واحد وتقوى وحدتهم السياسية . وقد نشرت نظارة المعارف برامجها ولم نشهد فيه ذكراً للعربية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية بل قالت أن تعليم العلوم بالتركية للذكور والإناث والصغار والكبار والعرب والترك

والروم والارمن والبلغار والارناؤد حتى ان المبادئ البسيطة التي سمحت بتعليمها من العربية تدرس في كتب الفها اتراك باللغة التركية . فادرك بعض الباحثين في احوال البلاد والعناصر ان غرض الحكومة من هذه الخطة (تتريك) العرب وغيرهم . وهو عمل اذا كان نافعاً من حيث السياسة فلا نفع فيه من حيث الاجتماع والعلم خصوصاً بعد ان رأينا اصغر الشعوب الاوربية تحافظ على لغتها الاصلية محافظتها على اعراضها واموالها وارواحها .

لا بد للحكومة ان تجعل التعليم اجبارياً في المملكة فاذا جعلته باللغة التركية ولم تراع حالة كل قطر ولغة اهله تسوء العاقبة ولا تأتي الشجرة التي تريد غرسها الآن بثمرة جنية بل يكون شأن البلاد العقم في العلم والفكر ومن لم يتعلم العلوم بلغته هيهات ان يأتي منه عضو يفيد أمته وبلاده . واذا فعلت الدولة ذلك الآن فتكون في عهدها الدستوري اظلم منها في عهدها الاستبدادي وتكون حكومة مصر ارفق باهل مصر من حكومتنا بنا لانها منا وتنظر عن يدها الكثير وتلك ليست منهم وكل شيء تأتي به يعد كبيراً .

وبعد فان كانت الحكومة العثمانية لم تنشط اللغة العربية في الماضي مع انها لغة الدين والآداب والحضارة فهي لم تضع العقاب في سبيلها مباشرة ولكن الغلطة العظيمة التي ارتكبتها ولا يغفرها لها التاريخ هو ان القائمين باعبائها منذ البدء جعلوا اللغة التركية لغة الدولة الرسمية خلافاً لما جرت عليه دول الاسلام السالفة كدولة المصامدة البربر في المغرب الاقصى والادنى ودولة الجراكسة في مصر والشام ودولة آل سلجوق التركية في العراق والجزيرة ودولة بني بويه الفارسية ودولة آل ايوب الكردية في مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها من الدول التي طرحت لغاتها وعمدت الى اتخاذ اللغة العربية لغة الحكومة والدولة فكان الجراكسة والبربر والفرس والاكراد والاتراك يتخلون عن لغاتهم مختارين ولا يستعملون في الرسميات غير العربية لغة البيان والعلوم اما الترك فجروا على غير سنة الدول السالفة لم يروا من المصلحة تعلم لغة عامة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها واكتفوا بلغة ملفقة بدوية ما برحوا يتوفرون منذ قرون على اصلاحها وهيهات ان تكون كما يحبون .

ولما جاء السلطان سليم فاتح مصر والشام وكان على شيء من المعرفة بحسن

العربية كما يحسن الفارسية والتركية احب ان يتلافى الغلط الذي سارت عليه دولته وان يجعل اللغة العربية لغتها الرسمية أسوة الدول الاسلامية البائدة فقام عليه بعض ضعاف العقول من اهل دولته وارادوه على العدول عن رأيه مخافة ان تندثر لغتهم بل تخلصاً من ان يتعلموا لغة غيرها فكان عملهم هذا من جملة السدود التي حالت دون آل عثمان وبسط ايديهم في الممالك الاسلامية المجاورة لهم واللغة العربية اعظم رابطة بين المسلمين .

ولقد كانت الدولة ولا تزال تعلم في مدارسها الرسمية العربية كما تعلم الفارسية وذلك لان التركية مزيج من هاتين اللغتين وبدون معرفة قليل من اللغتين لا يتأتى لتركي ان يكتب كتابة صحيحة في لغته فكان شأنها من بعض الوجوه شأن المدارس في اوربا لا تزال الى اليوم تعلم اللاتينية واليونانية لانهما اصل لغات اوربا وان كانتا بادتا او كادتا . ولكن مدارس اوربا اخرجت كتاباً بهذين اللغتين ولم نعهد من مدارس الحكومة العثمانية كاتباً بالعربية او الفارسية . هذا والتركية ليست لغة دين ولا لغة علم ولا لغة حضارة قديمة ولا مدنية معروفة كالعربية التي شهد اهل الارض بامجاد اهلها وحضاراتهم . ومن الغريب انه لم ينبغ في الدولة العثمانية كاتب عربي من اصل تركي على حين نبغ وينبغ من الفرس والاكراد وغيرهم اناس يؤلفون بالعربية فتحسبهم عرباً خلصاً . وانك لتقرأ العجمة في كلام ابن كمال باشا وكاتب جلبي وطاشكوبريلي وغيرهم من الاتراك الذين علموا العلم العربي وعدوا في المصنفين ما لا تقرأه في كلام الراغب الاصفهاني وابي بكر الخوارزمي وحجة الاسلام الغزالي بل ان هؤلاء على منشأهم الفارسي كانوا ائمة الانشاء العربي .

اذا تعلم ابناؤنا اليوم على الطريقة التركية لا يلبثون ان يجيئوا اتراكاً و يتقنوا التركية كارقى ابنائها وبذلك لا يخدمون ابناء لغتهم ادنى خدمة وقد رأينا معظم الذين تعلموا من ابناء سورية والعراق في المدارس الرسمية لا يحسنون التكلم بالعربية العامية فضلاً عن ان يكتبوا سطرين صحيحين بلغتهم بل رأيناهم يمزجون المصطلحات التركية وبعض الالفاظ التركية بينما هم يتكلمون بالعربية فكان شأنهم في هذا شأن اكثر التوانسة والجزائريين من سكان المدن يتكلمون بعربية تكاد تكون اقرب الى الافرنجية لما خالطها من الالفاظ الافرنسية والاسبانيولية والطليانية .

وقد رأى بعض العقلاء ان احسن حل لمسألة اللغة العربية في المدارس الرسمية واسلمه عاقبة لدى اجيال الدولة المختلفة هو ان يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعيات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وان تجعل العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لا يقع حيف على العرب وهم نصف الدولة او يزيدون ولغتهم افضل لغات سائر العناصر العثمانية . والمستقبل كفيل بحل هذه المعضلة المهمة .

ضراء العلماء

ان الاصلاح يبدأ بدءاً غريباً لا يأنس به الا ذوو الاستعداد الفطري لمبادئه العالية وابناء العلم والتهذيب من رجال الامة والبقية الباقية منهم يناهضونه اما بدافع جهلهم وتعصبهم او لعدم انطباقه مع ما يدعون اليه من التقاليد التي وجدوا عليها آباءهم ولهذا تعترضه قبل ان يدرج من عشه قوتان متنافستان : الواحدة تدعو لاعانته والاخرى تعمل على تلاشيه ويساعد الثانية في الغالب مال وخمول في ملك مخز البنيان وجاه منحط الظلال . . .

من هاتين القوتين تستعر حرب شعواء يضطرب لها فلك الاصلاح ولا بد ان تنجلي وقد ازهق الحق الباطل لان القوة الحقيقية بجانبه . ولقوة الحق حركة كبرى في ميدان تنازع البقاء

الا وان انصار الباطل كانوا وما زالوا في كل عصر ومصر يوقظون الفتنة ويضرمون جذوة الثورة فيقومون بدعوى الغيرة على الدين مرة وخدمة النفع العام تارة اخرى وما يريدون بذلك كما يشهد الحق الا منافعهم الشخصية فهي قبلة آمالهم التي يولون شطرها وكعبة اميالهم التي يسوقون نحوها مطايا هممهم وعزمهم .

وليس اضر شيئاً على العلم والدين من هؤلاء فبمثلهم كسد سوق العلم وراجت بضاعة الجهل المزجاة وهم بما يختلقونه من الاوهام مثلوا الدين بأقبح صورة مشوهة ينفر منها الناظر فرار السليم من الاجرب وهجروا الدين اجمالا واسما امام الاغيار فاخذوا يسلقونه بالسنة حداد وينزلونه في غير المنزلة التي وضعها السلف الصالح ايام كانوا على بيضاء نقية لا يضرهم من خالفهم اذا كانوا هم المهتدين .